النتاج الروائي بين سلامة النص وفعل الكتابة

د. شيماء نزار عايش

كلية الفنون الجميلة – ديالى

مستخلص

إن السرد نتاج تفاعلي بالدرجة الاساس، وهذا يعني أن كل نص سردي روائي أو قصصي، هو نتاج فاعل يجسد حصيلة ثقافية جديدة تضيف الى التراث قيماً كثيرة، لأن أي عمل ابداعي يشكل نتاجاً جديداً في مجال المعرفة بشكل عام، والفن بشكل خاص، وهو في تواصل مستمر مع عملية التذوق، لأنها عملية اتصال بين مبدع وما ينتجه من عمل، وناقد مستقبل وما يقوم به من نقد، وما دامت الثقافة بالدرجة الاساس هي ما يركس في الذهن وحصيلة معرفية فأنها ستتسرب الى النص بشتى الوسائل، إذ لا نتصور بافتراضنا أن انسانا بمن في ذلك المبدع " الروائي أو أيا كان يقول شيئا أو يعيه دون أن يكون ذلك الشيء جزء من ثقافته وسلوكه ولغته، وعليه ان الدراسة تسير في سلك باحث يعي ما يريد، ويحاول ان يفكك دلالات النص والوقوف على سلامته لغويا، من أجل الوصول الى متن سليم، لان فعل اللغة له اثر كبير في عملية الضبط، لتجعله متيناً رصيناً بعيداً عن الركاكة اللغوية، التي تضعف المتن حتى وان كانت الفكرة التي تتحكم في النص عميقة، وقد اثر الكشف عن تلك الجوانب من زاوية ترى ان السرد العربي هو النصف الاخر المكمل لنتاج ثقافتنا وابداعنا المعرفي، وان ضبط المتن من مقومات النص المتكامل نقديا وثقافيا وفكريا، وهذا ما يسعفنا بالقول: إن سلامة اللغة لا تؤثر على النص فحسب، وانما تتحكم به ايضا، على وفق مستويات عدة، تحكمها الرؤية والانطباع الأول لفعل القراءة والكتابة، من هنا ننطلق الى محاولة الكشف عن سلامة اللغة وما لها من أهمية فاعلة حتى على مستوى جمالية اللغة وضبط النص، حين نتعامل معه بوصفه نص متكامل وليس نصاً ناقصاً يشوبه الارباك في اللغة والبناء.

المقدمة

في بداية الحديث يطرح الموضوع سؤالا جوهريا يكاد يكون المحور الاساس الذي تفترض الدراسة الاجابة عنه، وهو: هل السرد نتاج تفاعلي معلنا لملامح البوح بعد التخفي عن الغاية القصدية ؟

إن السرد نتاج تفاعلي بالدرجة الاساس، وهذا يعني أن كل نص سردي روائي أو قصصي، هو نتاج فاعل يجسد حصيلة ثقافية جديدة تضيف الى التراث قيماً كثيرة، لأن أي عمل ابداعي يشكل نتاجاً جديداً في مجال المعرفة بشكل عام، والفن بشكل خاص، وهو في تواصل مستمر مع عملية التذوق، لأنها عملية اتصال بين مبدع وما ينتجه من عمل، وناقد مستقبل وما يقوم به من نقد، وما دامت الثقافة بالدرجة الاساس هي ما يركس في الذهن وحصيلة معرفية فأنها ستتسرب الى النص بشتى الوسائل، إذ لا نتصور بافتراضنا أن انسانا بمن في ذلك المبدع " الروائي أو أيا كان يقول شيئا أو يعيه دون أن يكون ذلك الشيء جزء من ثقافته وسلوكه ولغته، وعليه ان الدراسة تسير في سلك باحث يعي ما يريد، ويحاول ان يفكك دلالات النص والوقوف على سلامته لغويا، من أجل الوصول الى متن سليم، لان فعل اللغة له اثر كبير في عملية الضبط، لتجعله متيناً رصيناً بعيداً عن الركاكة اللغوية، التي تضعف المتن حتى وان كانت الفكرة التي تتحكم في النص عميقة، وقد اثر الكشف عن تلك الجوانب من زاوية ترى ان السرد العربي هو النصف الاخر المكمل لنتاج ثقافتنا وابداعنا المعرفي، وان ضبط المتن من مقومات النص المتكامل نقديا وثقافيا وفكريا، وهذا ما يسعفنا بالقول: إن سلامة اللغة لا تؤثر على النص فحسب، وانما تتحكم به ايضا، على وفق مستويات عدة، تحكمها الرؤية والانطباع الأول لفعل القراءة والكتابة، من هنا ننطلق الى محاولة الكشف عن سلامة اللغة وما لها من أهمية فاعلة حتى على مستوى جمالية اللغة وضبط النص، حين نتعامل معه بوصفه نص متكامل وليس نصاً ناقصاً يشوبه الارباك في اللغة والبناء، وهذا ما يقودنا الى الالتفات لقصدية النص والى واقع الروائي وطريقة تعامله مع النص السردي، وفي خلق عالم مسكون بتمثلات الذوات المنصهرة في لغة تضطلع الى محاولة خلق نص يؤثر في الصدى الايديولوجي، ومن أجل كسر قوالب الافكار الجامدة التي تعتمد فعل التحبيك المقيد للنص، ما جعل هذه الدراسة تميل الى هذا المسار نفسه، ولا سيما أن عالم الرواية هو عالم فسيح خالق لعوالم رحبة، فهو يحتوي رؤية

تشخص الواقع وان اختلف الطرح والمضمون، ومن وجهة نظر التأويل الايديولوجي هو فك لرمزية قد تتمثل في وجوه عدة، لتكشف عن تمظهرات التشوه التي قد يسببها الخطأ اللغوي البعيد عن السلامة وعملية الحبك له.

المحور الأول

النص الروائي والأفق المفتوح

إن الخطأ اللغوي يؤثر بصورة مباشرة على بلاغة القول للمتن السردي، وسلامة اللغة تتضح من خلال الصلة بين النص وعالمه الذي ينطلق منه، وأن رؤية الأعمال الأدبية ذاتها هي بمثابة افعال كلامية أو بمثابة محاكاة لها، بيد أن الوظيفة الفعلية انجازية لأنها تستعمل ضمن اللغة وضمن أعراف معينة تحدث اثاراً معينة في القارئ، ومن ثمّ فانه يحقق شيئاً ما بالقول، لأنه لغة وهي في حد ذاتها بمثابة نوع من الممارسات المادية، اما الخطاب فهو بمثابة فعل اجتماعي، وهذا ما يكشف عن اهمية سلامة المتن من الخطأ لأن السلامة اللغوية تستعيد لنا الاحساس بالإنجاز الألسني بالطريقة الأشد درامية،[١] إذ إن اللغة بوصفها وسطا شفافاً يمكن التواصل من خلالها إلى كينونة الاعماق، وكذلك أنها جسر يعبر من خلاله المبدع عن فكرته عبر تشكيلاتها وصورها فيقدم الموضوع بصورة متكاملة وناضجة ونلمس أن النص كلما كان خالياً من العيوب اللغوية كلما كان متكاملاً من جميع الجوانب: (الجمالية) (النقدية) (اللغوية).

وذلك ما يجعل المتن الروائي يحمل من الايحاء الدلالي المثير الذي ينقل القارئ إلى المعنى الأعمق، المعنى الماورائي للأشياء، ويعالج ويطرح القضايا المهمة التي تفصح عن مجهول العالم بلغة تفصح عن مكنون اللغة والفكر كونهما ينبوعين للمخيلة التي تنتج نصاً بليغاً، ولا بد من الاشارة إلى أن المعالجة هي ضرب من الإبداع، لأن للفكر خاصيته مادام اشتغاله هو (اللغة) وهي القصد الأول في توظيف النص،[٢] بمعنى آخر هو نص لا ينتج دلالة ولا يسمو إلى دقة لا تنحسر في رؤى المبدع وحده، بل في وعي المتلقي الذي يعيد قراءة النص أيضاً، وهذا ما يجعل أي نص يخضع لعمليات عدة يتضح فيها المستوى التأثيري والاقناعي وأفق التعبير اللغوي.

وهذا بدوره يقدم ما للغة من أهمية وما تحمله من معان، ولا بد من الاشارة إلى أن النص يجب أن يحتوي على لغة ثرية ومتكاملة من الترابط والتواصل، فاللغة المتصدعة

والمتشققة تشوه المعنى وتهدم البناء ولها القدرة على امتلاك تجربة غير متكاملة للنص المنتج لأن أي خلل في النص سواء أكان لغوياً لسانياً أم خاصاً بالبنية فيجعل عملية التواصل غير متطابقة مع الذات، لأنه نتاج سيرورة، وإذا كانت تلك السيرورة غير متطابقة فهذا يدل على أن المعنى لا يكون متطابقاً مع ذاته ابداً، لأن الأدلة الخاصة بالمتن الروائي والنص يجب أن تحمل علامة منتجة، إذ الانتاج هو جزء من الهوية وأن فحوى كل هذا يشير إلى أن اللغة أعمق بكثير مما عده البنيويون الكلاسيكيون، وبدلاً من كونها بنية محددة وواضحة التخوم هي أيضاً عبارة عن وحدات متناظرة من الدلالات والمدلولات، والنص الروائي يظهر فيها بحيز ممتد إلى ما لا نهاية، إذ تتبادل العناصر وتدور على نحو متواصل، وجميع العناصر تكون في تواصل بصورة مطلقة واقعة في شراك النص وحاملة لأثره، وفي الوقت نفسه معطية لتوصيف شامل لبنية النص ومضمونه الفكري الداخل ضمن دائرة الإبداع المنتج للنص ووظائفه المتعددة وفي نهاية ذلك نرى أن سيرورة النص قائمة على:

١) اللغة الضابطة

٢) الترسيمات

٣) الاتجاهات والملامح

٤) لغة السرد الناطقة

٥) المتن والايديولوجيات التي تتضمن دلالاته

وهذا ما يجعل اللغة محبوكة إذ إنها وحدة كلية منسجمة تنفتح على لغة مفعمة بالحيوية المستمدة من ربط العناصر النصية، وهذا ما يكشف عن نص روائي دقيق وقيم بطرق معمارية في الرؤية الناقدة من خلال (اللغة/ الدلالة) (الواقع وتأثيره على تلك اللغة المنتجة للنص) .

وعليه أن اللغة ليست مجرد (اداة أتصال أو وسيلة ثانوية للتعبير عن أفكار، وإنما هي البعد الحقيق الذي تتحرك فيه الحياة الإنسانية) . [٣]

وخلاصة ما تقدم أن اللغة هي أساس كل شيء ومحرك ديناميكية النص وضبط دلالاته.

المحور الثاني

الجنس الروائي وسلامة المتن

يجسد أي نص انتاجية ابداعية، فالنص طاقة تخلق عوالم لها القدرة على المروق في فضاءات تتجاوز الواقع والحقيقة، فضلاً عن توظيف امكانيات اللغة وطاقاتها المختلفة التي تنطلق منها بؤرة النص ومركزيته آذنة للدخول إلى فعل التنسيج وقوة الدلالة التي تنتج لنا فضاءات متنوعة وعوالم لا تتوقف عند حدود الممكن والمعقول، وهذا ما يعطي للنص صفة الانفتاح ومرونة التعامل مع اللغة أيضاً، ولاسيما أن كان النص متكاملاً مع جميع النواحي كـــ:

١. اللغوية (الصرفية وابنية الجمل)
٢. التشكيلية (ويدخل ضمنها جمالية التعبير)
٣. زمنية النص وعملية التداخل ما بين الممكن وعكسه في رواية ثالثهما الموت للروائية ياسمين ثابت تقول: (جرح الفقد لا التئام له، جرح الظلم لا امل في شفائه ! كنت أريد أن أجرح، ربما كان هذا ما أحببته في روح بدر، هذا ما رأيته في عينيه، سلاح لم يطلق بعد، لو أني كنت رجلاً لما استهجن أحد انضمامي إلى تدريب الشباب والحرب على بنغازي ويشكة، ومصر اجدادنا لا يزال يتأرجح كل ساعة ما بين الثوار والكتائب! أريد أن أقاتل، لم تخلق كل النساء لنكون سكتاً، لم أخلق لأكون رد فعل خلقت لأكون فعل! بحت بما في لباهي، تطلع الي بعدم تصديق، يريد التأكد ... سترحلين مع الفوج الأخير المتجه إلى مصر قبل أن تتعرض بنغازي للحرب)، [٤] النص السردي عملية ورؤية انتاجية تتجاوز مع الرؤية التنقيحية التي تستأثر افق الحوار للنص أو المتن السردي المنفتح لأن النص لا يمكن أن يحيا في انغلاقه على نفسه وإنما يحيا بالانفتاح فالنص يسير في شعاب دلالية كبيرة مستمرة متراوحة ما بين:

(التشخيص)

(التجسيد)

(العلاقات الاسنادية)

(الانكفاء على الدلالة التشفيرية)

(الاستنزاف النصي)

ومن خلاله يتجسد النص على أساس شعب دلالية غنية تمنح النص حيوية تتفاعل مع طبيعة العينة للمتن الروائي السليم لأن سلامة النص تقوم على أمور كثيرة كما وضحتها في هذا المخطط الذي يمثل النص التكاملي:

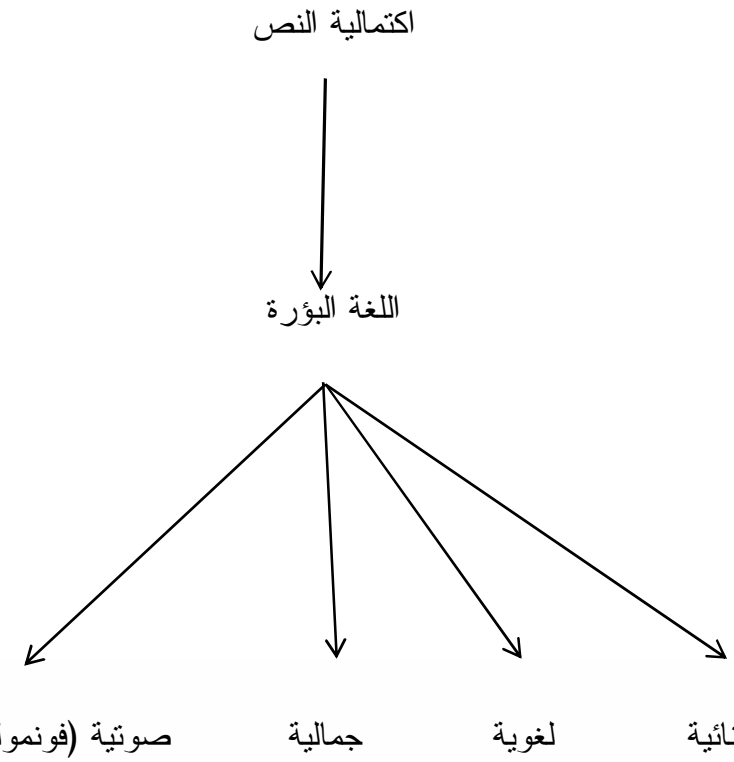

وللنص السليم خصائص مهمة تكشف عن (الفهم التام للنص) و(تجسيد المعنى كخطاب)

إذ إن مفهوم اللغة داخل ضمن التيار الاصلاحي لتغير عميق، لم يعد يقتصر على عدم اعتبار أن البنية الشكلية للغة تستنفد مسألة الدلالة، بل نعد ان للبنية اثراً في تحديد المعنى وسلامته للوصول إلى نص مثالي لا يعتمد فقط على مكونات وعناصر بل هو نص شامل ومتكامل وأكبر من كونه مجرد قول أو خطاب، وإنما هو بنية لغوية يكتمل فيها البناء بطريقة توصلنا إلى سياق وصيغة محبوكة لا تشعر المتلقي بانقطاع أو فجوات.

والقول هو الفعل وهذا ما يسميه أوستن (فعل القول أو الفعل القولي، لأنه لا يوجد مكان آخر أو وسيلة أخرى غير اللغة للإنجاز) [٥]، وهذا ما يشير إلى مهمة اللغة في انجاز متن روائي سليم من جميع المعوقات اللغوية التي قد تسبب ركاكة لغوية إلى جانب ضعف البناء وضياع الفكرة وتشتت الدلالة.

يذكر النص الروائي ((بعضنا يعلق في موقف ولا يستطيع الخروج منه للابد، يظل يعيش فيه لحظة تلو الاخرى ... القتال ليس الدوامة التي يغرق فيها، وينسى وجوده، على الرغم من مرور كل هذا الوقت، وعلى الرغم من كل ما شاهدناه))[٦]

فالفعل القولي هنا ناتج عن سلامة قول يحيل إلى عدة أمور داخلة ضمن الاطار الايديولوجي الذي يعمق الدلالة، وهذا ما يدلل على أن الاعمال الادبية غير مستقلة عن بعضها البعض،[٧]، وان النص يشير الى حوار يحدث داخل اعماق النفس يستمد من طاقته التعبيرية والقولية التي تكشف عن استبطان لرصد ومضات الوعي وتقلبات الحياة.[٨]

إذ ان الخواء والاحساس بالنص قد انفلت من رمزية زمانية ومكانية غاصة بدلالات موحية من خلال لغة قولية فيها من الجمال الذي يحيل الى سلامة النص واكتماله .[٩]

ولذا ان عملية الكشف عن النص واسراره تتمركز حول جودة النص المتكامل والسليم،[١٠] والابتعاد قدر الامكان عن الالفاظ والمعان التي تزوق المتن ولا تحيل الى عمق دلالي فاعل في النتاج الابداعي.

وخلاصة القول لابد من الاشارة إلى بعض الأمور :

- الخطأ يتكون من خلال عدم القدرة على التمييز بين قواعد النحو وهي من المشكلات المهمة التي يجب التنبه إليها، من أجل الحصول على متن سليم دقيق متكامل يخلو من العشوائية والبناء المخل لمتنه.
- قد يرجع الخطأ احياناً إلى عوامل متنوعة تتعلق بالواقع الاجتماعي البيئي ومسائل الاقلاب واستعمال الترادف الذي قد يؤدي إلى اشكاليات التلابس في المعنى المقصود أو المراد.
- قابلية النص نفسه، ولاسيما أن كان روائياً لأن سعة الاشتغال الروائي أوسع وأعمق وتتطلب عملية ادراك وعمق باحث في اعماق النص، لأن النص عبارة عن لغة واللغة ما هي إلا شبكة متداخلة من الروابط والدلالات والقيم والمعاني المنتجة في داخل النص وخارجه شكلاً ومضموناً.

هوامش البحث ومصادره:

(١) ينظر: نظرية الأدب: تيري ايغلتون، ترجمة: ثائر أديب، دمشق، ١٩٩٥م: ٢٠٥.

(٢) ينظر: الرؤى الفلسفية في الشعر العراقي الحر: د. بشير عويعر، دار المدينة الفاضلة، ط١، بغداد، ٢٠١٤م: ٧٠.

(٣) نظرية الأدب: ١١٤.

(٤) وثالثهما الموت: ياسمين ثابت، السراج للنشر والتوزيع، ط١، مصر، ٢٠١٦م: ١٣٥.

(٥) فلسفة اللغة: اريك غريلو، ترجمة: عفيف عثمان، المركز العلمي العراقي، بغداد، دار البصائر، ط١، بيروت، ٢٠١٢م: ٨٧.

(٦) وثالثهما الموت:٢٥١.

(٧) ينظر: غواية السرد قراءات في الرواية العربية من اللص والكلاب لنجيب محفوظ الى بنات الرياض لرجاء الصانع، دار نينوى،سورية،٢٠١٠ م: ٤٥.

(٨) ينظر: قراءات نقدية في نصوص روائية، د. فاطمة عيسى أبو رغيف، دار الينابيع، سوريا، ط١، ٢٠١٠ م: ١٥.

(٩) ينظر: الطائر والنخلة قراءة في تجربة حسب الشيخ جعفر الابداعية، ريسان الخزعلي، سوريا، ط١، ٢٠١٢ م: ٣٣.

(١٠) ينظر: المستويات البلاغية في نهج البلاغة دراسة في شعرية النثر، نوفل ابو رغيف، بغداد، ط٢ ٢٠١١ م:١٩٩

المصادر

- الرؤى الفلسفية في الشعر العراقي الحر: د. بشير عويعر، دار المدينة الفاضلة، ط١، بغداد، ٢٠١٤م.
- الطائر والنخلة قراءة في تجربة حسب الشيخ جعفر الابداعية، ريسان الخزعلي، سوريا، ط١، ٢٠١٢م.
- غواية السرد قراءات في الرواية العربية من اللص والكلاب لنجيب محفوظ الى بنات الرياض لرجاء الصانع، دار نينوى،سورية،٢٠١٠ م
- فلسفة اللغة: اريك غريلو، ترجمة: عفيف عثمان، المركز العلمي العراقي، بغداد، دار البصائر، ط١، بيروت، ٢٠١٢م.
- قراءات نقدية في نصوص روائية،د. فاطمة عيسى أبو رغيف، دار الينابيع،سوريا،ط١، ٢٠١٠ م
- المستويات البلاغية في نهج البلاغة دراسة في شعرية النثر، نوفل ابو رغيف،بغداد،ط٢ ٢٠١١ م.
- نظرية الأدب: تيري ايغلتون، ترجمة: ثائر أديب، دمشق، ١٩٩٥م.
- وثالثهما الموت: ياسمين ثابت، السراج للنشر والتوزيع، ط١، مصر، ٢٠١٦م.